البيئة الاجتماعية وانعكاساتها على مسيرة الشهيد
زيان عاشور إبان الثورة التحريرية

الأستاذ مزارة عيسى ا لأستاذ ونوقي عبد القادر – جامعة زيان عاشور الجلفة

ملخص:

تتحدث هذه المقالة عن البيئة الاجتماعية المزرية التي خلقها الاستعمار الفرنسي لمحو كل المقومات الشخصية الجزائرية، والتي دفعت بهذا الشعب للكفاح والدفاع عن وطنه ومقوماته، فانطلق أبطال الجزائر للنضال والجهاد في سبيل الحرية أو الاستشهاد، فكان الشهيد زيان عاشور من بين الأبطال الذين ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل هذا الوطن رغم ظروفه الاجتماعية الصعبة.

Résumé

Cet article aborde l'environnement social tragique qui a été crée par le colonialisme français dans le but d'effacer les traits de l'identité algérienne, Ceci a incité le peuple à la résistance pour libérer le pays et ses principes, les héros de l'Algérie ont pris l'initiative pour lutter et combattre en clamant leur liberté, le martyr Ziane Achour était parmi les braves types qui se sont donnés dans la bataille corps et âme malgré les obstacles et les conditions défavorables.

مقدمة:

لقد تسبب المستعمر الفرنسي أثناء تواجده بالجزائر في محاولة طمس الشخصية الجزائرية من خلال المشروع الاستدماري في هدم المجتمع الجزائري وخلق ظروف اجتماعية صعبة يعيشها الشعب الجزائري، وذلك من خلال إيقاف أي نمو حضاري ومجتمعي للجزائر، طمس هوية الجزائريين الوطنية، تصفية الأسس والبنى التحتية التي يرتكز عليها هذا المجتمع، ضرب الوحدة القبلية والأسرية، نشر السياسة التبشيرية لاستهداف الدين الإسلامي وإحياء الكنيسة الإفريقيا الرومانية التي أخذت بمقولة "إن العرب لا يطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين".

و في ظل هذا القهر الاجتماعي الذي مارسته فرنسا على الشعب الجزائري فقد تعدت ذلك لكل الجوانب السياسية والاقتصادية وحتى الرياضية فكان لزاما على الشعب الجزائري مقاومة هذا المستعمر الغاشم، فكانت ثورة التحرير الوطني هي المسلك الوحيد لرد الاعتبار لهذا الشعب وصوت الرصاص هي اللغة المناسبة لهؤلاء المستدمرين لسماع صوت هذا الشعب فانطلقت الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954 في جميع ربوع الوطن بعد تنظيمها وهيكلتها إلى ولايات ومناطق وتحت قيادات ثورية فاعلة سياسيا وعسكريا، وولاية الجلفة وبحكم موقعها الجغرافي الذي جعلها في قلب الجزائر، والتي أكسبتها تأثيرا وتأثرا بمختلف الأحداث التي شهدتها الجزائر عبر عصورها المختلفة، فقد كانت مسرح من مسارح المقاومة الشعبية، ولم تبخل منطقة الجلفة بتضحية الكفاح، سواء السياسي بانعكاس نشاط الحركة الوطنية على هذه المنطقة طيلة فترة ما قبل الثورة و ما شهدته من زيارات لبعض أقطاب الحركة الوطنية، وما دفعته هذه المنطقة من ضريبة غالية أثناء ثورة التحرير المباركة منذ البدايات الأولى للثورة عبر دماء أبناء المنطقة التي سالت في كل ربوع الوطن، ولعلى الشهيد زيان عاشور كان احد الأبطال المساهمين في الكفاح المسلح بهذه المنطقة المعروفة ثوريا بالولاية السادسة، من هذا المنطلق جاءت مداخلتنا هذه المتمحورة حول مسيرة هذا البطل في منطقة الجلفة مع تسليط الضوء على البيئة الاجتماعية التي عاشها الشهيد وكان من بين المؤثرين فيها لا المتأثرين بها، حيث عمل على استقطاب شريحة كبيرة من الشباب للانضمام والإيمان بالثورة والكفاح المسلح وهنا يكمن دوره السوسيولوجي، في كل العمليات البطولية التي أقدم عليها الشهيد البطل رغم كل الصعاب وكيفية استشهاد ما عرف باسم أسد الصحراء.

1/– نشأة الشهيد زيان عاشور:

ولد الشهيد في 1919 بالبيض بلدية البسباس دائرة أولاد جلال ولاية بسكرة من أبيه مبروك و أمه بركاهم السعيد، تلقى تعليمه الابتدائي في زاوية أولاد الرملية، وحفظ القرآن الكريم في الكتاتيب على يد الشيخ العيد بن بهاء الدين أقودري بمدينة عين الملح سنة 1935.

أكمل تعليمه الثانوي بزاوية المختار بأولاد جلال ولاية بسكرة، حيث استطاع أن ينال قسطا وافرا من العلوم الشرعية والعربية.

تم تجنيده في صفوف في الجيش الفرنسي عنوة سنة 1939، ليتخرج من صفوفه سنة 1944، وفي سنة 1945 انخرط في حزب الشعب ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية، حيث تم تكليفه آنذاك بالدعاية والأخبار بمنطقة أولاد جلال تحت غطاء ترأسه للجنة البطالين و نظرا لنشاطاته المشبوهة ألقي عليه القبض مرارا كانت إحداها لنشاطه الدعائي في الحملة الانتخابية لفائدة مرشحي حزبه ليعاد إلى السجن سنة 1948.

تلقى الشهيد في بداية مسيرته السياسية عدة إغراءات مادية مقابل التخلي على نشاطه السياسي، غير أنه رفض ذلك في كل مرة مبينا صموده وكفاحه على القضية الوطنية، لأن ما أنجزته فرنسا من تطورات ورفاهية في الجزائر متمثلة في الإنسان الأوربي النموذج، ولا يمكن للمؤرخ النزيه أن ينكر ذلك، لكن كل الإنجازات كانت موجهة لخدمت مصالح الأوربيين، وحيث لا وجود للمستعمر فإن تلك الإنجازات لم تصل ولم تتحقق[1]، بفضل فطنة و رجاحة عقول الثوار الجزائريين الغير قابلين لبيع قضيتهم الوطنية بثمن، انتقل إلى فرنسا سنة 1948 من أجل مواصلة نضاله السياسي في مدينة (ليون
الفرنسية) ليعود سنة 1952 لأرض الوطن، فتم اعتقاله.

في سنة 1953 رزقه الله بإبن سماه (جمال عبد الناصر) تبركا وتيمنا بنجاح الثورة المصرية في 1952/07/23.

عاش الشهيد كغيره من المواطنين الجزائريين مأساة اجتماعية، فان قيمة الإنسان الجزائري لم تكن، عند اندلا ع الثورة أفضل من قيمة البهائم ، فقد عمدت السلطات الفرنسية في التخطيط لخلق مجتمع جزائري ساذج في أغلبيته، له نحو المستعمر شعور مزدوج بالإعجاب والكراهية أما الإعجاب فيما توصل إليه الأجنبي من معرفة، وما حققته من تقدم وازدهار، وما أحرز عليه ثروة ورفاهية وسيطرة على التقنيات العصرية، وأما الكراهية فناتجة عن الإحساس بكون ذلك الأجنبي يمتص خيرات البلاد، وينهب أهلها دون أن يجد من يقف له بالمرصاد، وما من شك أن هذا الشعور المزدوج هو الذي ساعد مع مر الأيام على تطويره وتدعيم الحركة الوطنية في الجزائر وأدى ذلك التجهيل إلى جعل المجتمع الجزائري يتخلى بدون وعي، عن الكثير من مميزاته حتى كاد يصبح جسدا بلا روح، فاقدا لهويته الحقيقية متنكرا لأخلاقه ومبادئه، يجري وراء أنماط للحياة مستوردة، ولا علاقة لها بماضينا ولا بحاضرنا[2]، غير أن الشهيد وفضل الله ورجال الثورة تفطنوا لكل فكرة مسمومة تزرعها فرنسا في نفوس الجزائريين إلا واقتلعوه بلسانهم أو بسلاحهم.

2/– مسيرته النضالية:

تم استدعائه للمشاركة في مؤتمر الحزب ببروكسل ببلجيكا، غير أن السلطات الفرنسية منعته من ذلك باعتقاله، وبعد خروجه من السجن أي قبيل اندلاع الثورة التحريرية المضفرة، عينه الشهيد مصطفى بن بولعيد مسؤولا على المنطقة الصحراوية، فشرع في تجنيد الشباب و تدريبهم وتنظيم اللجان الشعبية، وخلايا المسبلين في المدن والقرى استعدادا لاندلاع الثورة.

مع وصول نشاطه الأخير إلى سلطات الاحتلال أقدمت فرنسا على اعتقاله كالعادة في 1954/11/01، حيث مكث في سجن الكدية بقسنطينة أين كان إلى جانب عدة وطنيين من أبرزهم الشهيد البطل مصطفى بن بولعيد، وهو ما ساعده في التخطيط ليسارع بعد خروجه مباشرة من السجن سنة 1955 بزيارة قصيرة لكل من العلمة وسطيف، ثم توجه إلى بوسعادة وعين الملح و أولاد جلال في مهمة لتجنيد مقاتلين في صفوف جيش التحرير الوطني، حيث كللت مهمته بالنجاح، إذ هيأ قواعد للعمل للثورة، وبدأ إرسال المجاهدين الى منطقة عريعير أو فم الخرزة بالقرب من عين الريش وعندما وصل أول المجندين من بوسعادة إلى عريعير، وجدوا في استقبالهم 10 مجاهدين هم النواة الأولى التي تشكلت بالمنطقة يكلف سي الحسين بن عبدالباقي عمر ادريس و مجموعة من المجاهدين من بينهم: مسعود شرقي، مولود بريش، حسين شلي، عبدالحميد سعيدان، ناصر علي، سلمي عبدالله، عمار بوزور، عاشور مُحَّد الشاوي بالتوجه إلى ناحية أولاد جلال، في طريقهم تجند معهم الإخوة: أحمد بوطي، مُحَّد بلحاج، المرزوقي ، وبأولاد جلال، كان أول اتصال لهم بمحمد بن الهادي و احمد بلكحل ، ثم بالقائد الشهيد زيان عاشور الذي كلفهم بالتوجه نحو فم الخرزة بالقرب من جبل بوكحيل، حيث يجدون في استقبالهم نواة جيش التحرير الوطني التي تشكلت في الناحية: لخضر الساسوي ، الشريف الرحماوي.

بقي الأمر على هذا الحال إلى أن تم تعينه رسميا كقائد عام لوحدات الجيش الموجودة آنذاك و هذا من قبل الشهيد البطل مصطفى بن بولعيد الذي كان قد فر من السجن و التحق بصفوف الثورة في الجبال.

في شهر مارس 1956 تم استدعاء الشهيد زيان عاشور من قبل الشهيد مصطفى بن بولعيد لاجتماع عام حضرته إطارات الثورة في المنطقة الأولى آنذاك والتي كانت تتبعها هذه الجهة و هذا في المكان المسمى (الجبل الأزرق، تافرانت)، فتم تعيين الشهيد زيان عاشور مسؤولا عن منطقة الصحراء، المعروفة فيما بعد بالولاية السادسة، وهذا بعد انعقاد مؤتمر الصومام أين تم تصنيف منطقة الجلفة ضمن الولاية السادسة وعين العقيد علي ملاح قائدا لها وبعد استشهاده أصبح زيان عاشور قائدا خلفا له[3]، وهكذا أعطى المؤتمر دفعا قويا للثورة حيث ارتفع عدد المجاهدين ليبلغ 100000 مجاهد عام 1958[4]، وقد قال الشهيد مصطفى بن بولعيد مقولته: (جاء الرجل الذي نعتمد عليه في الصحراء)، وقد سمي بعدها باسم (أسد الصحراء) نظرا لشجاعته وإقدامه الباسل في كل معاركه ضد الاستعمار الفرنسي.

3/– أهم المعارك التي خاضها الشهيد:

قاد البطل زيان عاشور عدة معارك وهجمات ضد العدو نذكر منها:

1. **معركة جبل مناعة سنة 1956**: بعدما رصدت القوات الاستعمارية تحركات المواطنين اتجاه سفوح الجبل تفطنت للكتيبة المرابطة بمرتفعات العريعير أو هذا ما جعلها تجمع قواتها بالسهل المجاور استعدادا للهجوم على موقع المجاهدين ،بالمقابل كانت الكتيبة تتحين الفرصة للانقضاض على قوات العدو ورد هجماته ، فقام أفرادها بنصب قطع السلاح الجماعية في الأماكن الإستراتيجية من بينها قطع الفامبار، عندما تمت الاستعدادات لم يفوت المجاهدون فرصة تجمع عساكر العدو فأمطروهم بوابل من الرصاص، مع بداية المعركة فسقط العديد من الجنود الفرنسيين بين قتيل وجريح ، هذا ما جعلهم يردون ردا عنيفا ورغم ذلك قاتل المجاهدون ببسالة ليس لها مثيل، ومع استمرار المعركة ، ركز الفرنسيون هذه المرة على مصدر النيران مما تسبب في أضرار لفوج المقاتلين المكلفين بالرماية بالأسلحة الأمريكية مما تسبب في استشهاد العديد من المجاهدين هذا ما جعل قائد الكتيبة يعطي الأوامر بالانسحاب، كانت نتائج هذه المعركة سقوط العديد من جنود العدو بين قتيل وجريح خاصة مع بداية المعركة استشهاد مجاهدين ضحوا بأنفسهم من اجل تحرير الوطن الغالي وكان عددهم 15 شهيد وقد نقل الجرحى إلى خارج ميدان المعركة وذلك من اجل علاجهم في مخابئ خاصة، تعد معركة العريعير أو فايجة العرعار بمناعة إحدى المعارك التي خاضها جيش التحرير والتي اثبتوا فيها قدرتهم على تسيير أطوار المعارك، خاصة وأنهم يعلمون أن العدو لا يمكنه التصدي لهجماتهم ،وذلك لعدم معرفته الكاملة بخبايا جبال المنطقة الثانية من الولاية السادسة التاريخية (مناعة) والتي أصبحت حصنا منيعا للباحثين عن الحرية تحت قيادة مؤمنة بان الحرية تأخذ و لا تعطى.[5]
2. **معركة جبل قعيقع سنة 1956**: شهد معركة شرسة خاضها المجاهدون ضد قوات الاستعمار في شهر جوان 1956، حيث تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة بهذه المنطقة، وقد تمكن المجاهدون من إسقاط طائرة حاملة للجنود وعلى متنها 11 جنديا فرنسيا، ولا تزال بقايا الطائرة التي تآكلت بفعل الصدأ إلى يومنا هذا بدائرة دار الشيوخ، والتي وضعت أمام باب مقبرة "الشهداء" شاهدا على شراسة هذه المعركة، التي استشهد خلالها حوالي 60 مجاهدا، وتقرر دفنهم بالمنطقة التي شهدت فصول المعركة، وقد دامت هذه المعركة يوما كاملا وقد سقط سبعة شهداء في صفوف المجاهدين من خيرة أبناء الوطن[6].
3. **هجوم على مركز العدو بعين الريش في ماي 1956**: تم هذا الهجوم بولاية المسيلة وقد غنم المجاهدون تحت قيادة الشهيد البطل زيان عاشور خمسون (50) قطعة سلاح .
4. **هجوم على مركز للعدو بعمورة**: تم هذا الهجوم بولاية الجلفة بمنطقة عمورة يوم 05 ماي 1956 وغنم المجاهدون على اثره 55 قطعة سلاح وكمية من الذخيرة الحية.

4/– استشهاد الشهيد زيان عاشور:

بعدما توسعت رقعة الثورة على المستوى الوطني كانت المنطقة الثانية للولاية السادسة مهيأة كبقية مناطق الوطن لاحتضان العمل الثوري بقيادة الشهيد زيان عاشور والشهيد عمر إدريس وذلك في نهاية 1955 حيث بدأت العمليات الثورية لتشمل كافة المنطقة وهي الجلفة والمجدل وعدة مناطق أخرى ومع تطور هذا العمل الثوري خاض المجاهدون معارك عديدة تحت قيادة الشهيد زيان عاشور فكانت معركة وادي خلفون 1956 أخر معركة للشهيد حيث استشهد فيها وكانت تسمى معركة وادي خلفون بأولاد درابح اثر احتفال أقامه جيش التحرير الوطني في منطقة بمناسبة الذكرى الثانية لانطلاق الثورة التحريرية شارك فيه المئات من المناضلين والمواطنين والمسبيلين تحت إشراف القائد زيان عاشور الذي قدم خلاله توجيهات وتنظيمات عامة للمشاركين .وقد علمت القوات القوات الاستعمارية بهذا التجمع الكبير بواسطة احد أعوانها المسمى مُحَّد بن الهامج فتحركت باتجاه المكان الذي وصلته يوم 1956/11/07 لتدخل في معركة ضارية مع المجاهدين الذين لم يكن عددهم يتجاوز 25 جندي في المعركة، امتدت من الساعة العاشرة صباحا حتى المساء مسفرة عن خسائر كبيرة في صفوف العدو، واستشهد من المجاهدين قائدهم زيان عاشور و النية احمد بن لخضر ، مقري ساعد ، و أسقطت طائرة للعدو، وقد خلفه في قيادة الجيش بالمنطقة عمر ادريس[7].

خاتمة:

يعتبر الشهيد زيان عاشور من بين الأبطال الأوائل الذين وسعوا رقعة الثورة بالصحراء، حيث ظل يجوب المنطقة في الولاية السادسة دون توقف، حيث كان يدعوا في الشباب الجزائري لضرورة الكفاح المسلح ضد الاستعمار الغاشم، ويجمع المال والسلاح ويجند الشباب حتى تضاعف عدد المجاهدين الذين خاضوا أشرس المعارك، وجعلوا من الصحراء ميدانا هاما للثورة ومقبرة لأعداء الجزائر، وهو بذلك استغل الظروف الاجتماعية التي كانت تتخبط فيها الأسر الجزائرية نتيجة السياسة والتخطيط التي انتهجتها فرنسا لطمس الشخصية الجزائرية وجعل هذه الثورة ثورة بطون لا ثورة كفاح واسترجاع الحرية، وهذا باستغلال الوضع المزري الذي كان يعيشه المجتمع الجزائري، إلا أن نضال الشهيد وزملائه في الكفاح أعطوا للمستعمر درسا في المقاومة وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

قائمة المراجع:

1 ستار الهورن، تاريخ حرب الجزائر، لندن، 1977 ، ترجمة للفرنسية ونشر في باريس 1980 ص.61.

2 مُحَمَّد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 ص.48.

3 عبد القادر فيطس، الشعر الملحون الديني بمنطقة الجلفة، (بدون دار نشر)، ط1، 2013، ص.17.

4 صالح فركوس، المختصرة في تاريخ الجزائر، دار العلوم، الجزائر، ص.256.

5 http://www.djelfa.info/ar/homme_histoire/1713.html

6 مسيرة كفاح لمذكرات المجاهد الرائد المتقاعد قليطي الشيخ، ط1، غرداية، الجزائر، 2014، ص.134.

7 مسيرة كفاح لمذكرات المجاهد الرائد المتقاعد لقليطي الشيخ، نفس المرجع، ص.135.